ومما لاحظته على كُتّاب الموسوعة أنهم يكثرون من إرجاع الكلمات العربية القرآنية، بل الإسلامية بوجه عام، إلى أصل أجنبي: فهذه الكلمة مأخودة من الآرامية، وهذه مستعارة من العبرية، وتلك منقولة من الإثيوبية، رغم أنها جميعًا ترجع إلى جذر عربي له اشتقاقاته المختلفة المستعملة في الشعر الجاهلي والقرآن الكريم. ثم إنه لا معنى لإرجاعها إلى أصل ساميّ غير عربي ما دامت العربية لغة ساميّة هي أيضا كتلك اللغات المذكورة. وكون هذه اللغات متفرعة من أصل واحد حقيقي أو متخيَّل هو اللسان السامي هو من أقوال المستشرقين[1]، فكان ينبغي ألا يزعموا أن هذه أو تلك من كلمات القرآن العربية ليست عربية بل مأخوذة من لغة ساميّة أخرى، وبخاصة أنهم لا يملكون أي دليل على دعاواهم هذه. إنهم بأسلوبهم هذا يريدون الإيحاء بأن الإسلام، الذي يزعمون أنه من اختراع محمد وتأليفه، قد استعار كثيرا من ألفاظ عقيدته وتشريعه من لغات ساميّة أخرى، أي أنه حتى في مصطلحاته هو دين فقير لا يستطيع النهوض بنفسه ويحتاج إلى الاستناد إلى مصادر خارجية. إن الواحد منا يستطيع بنفس الطريقة أن يختار ما يشاء من الكلمات في اللغة الآرامية أو العبرية أو الحبشية ويقول إنها كلمات عربية أخذها أهل هذه اللغات من لغتنا وأدخلوها في لغاتهم. لكن هذا ليس من البحث العلمي في شيء ما دمنا لا نقدم دليلاً على ما نقول. وكما أن هذا لا يجوز، فكذلك لا يجوز ما يزعمه المستشرقون ما داموا لا يقدمون على مزاعمهم دليلاً.

ومن ذلك أن رودي پاريت يُفْتِي بأن كلمة «أُمَّة» (بمعنى «شعب») الواردة في القرآن ليست عربية الأصل من «أم م»، ولا علاقة لها بـ «أمّة» (بمعنى «فترة من

(١) انظر في ذلك مثلاً د. جواد علي/ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ ٨/٥٢٥ وما بعدها.

الزمن») الواردة في القرآن أيضًا[٢]، وإنما هي مستعارة إمّا من العبرية وإمّا من الآرامية[٣].

وهذا تحكم غريب سخيف: أولاً، لأنه لا دليل لپاريت على ما يقول، وإنما هو مجرد كلام. وثانيًا، لأن هاتين اللغتين، مثل العربية، ساميتان. وعلى هذا، فإذا كان هناك شيء مشترك بينهما وبين العربية فالأوْلى إرجاعه إلى ذلك الأصل السامي الذي انشعبت منه هذه اللغات. وثالثًا، إذا كان لا بد من القول بالاستعارة فلماذا تكون العربية عند هؤلاء المستشرقين هي الآخذة دائمًا؟ إن اللسان العربي قديم، مَثَلُه مَثَلُ سائر الألسنة السامية، ويزيد علي معظمها بأنه لا يزال حيًا، وفوق ذلك لم يتوقف استعماله منذ بدايته حتى الآن. ومعنى ذلك أنه أكثر صلاحية وأحفل بأسباب النمو والتطور والبقاء، وهو ما يرشِّح أن تكون الاستعارة منه لغيره لا العكس. ورابعًا، فإن كلمة «أمَّة» موجودة في لغتنا وبمعان متنوعة، وليس بمعنى «فترة من الزمن» فقط كما يدعي پاريت. وقد وردت في القرآن بمعنى «الإمام»: ﴿إِنَّ إِبْرَاهِيمَ كَانَ أُمَّةً قَانِتًا لِّلَّهِ حَنِيفًا﴾[٤]، وبمعنى «وقت معين»: ﴿وَلَئِنْ أَخَّرْنَا عَنْهُمُ الْعَذَابَ إِلَىٰ أُمَّةٍ مَّعْدُودَةٍ لَّيَقُولُنَّ مَا يَحْبِسُهُ﴾[٥]، وبمعنى «فئة من الناس»: ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾[٦]، وبمعنى «الطريقة»: ﴿قَالُوا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّهْتَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾[٧]، وذلك غير

(٢) يوسف: ٤٥.

(٣) ١/٦٠٣/ مادة «أُمَّة».

(٤) النحل: ١٢٠.

(٥) هود: ٨.

(٦) آل عمران: ١٠٤.

(٧) الزخرف: ٢٢، وانظر الآية التي بعدها.

معانيها الأخرى التي لم ترد في القرآن الكريم. فلماذا القول بأن أمة (بمعنى «شعب») هي بالذات مأخوذة من العبرية أو الآرامية؟ أليس هذا هو التنطع بعينه؟ إن تردد باريت بين هاتين اللغتين هو دليل على أنه يقول أي كلام. كذلك فإذا كان هو يقبل وجود هذه الكلمة في هاتين اللغتين دون أن يقول باستعارة إحداهما إياها من الأخرى، فلماذا لا يفعل ذلك مع العربية؟ أليس هذا برهانًا ساطعا على أن المسألة مسألة عداء للغتنا وقرآننا؟

ويدعي بوهل أن كلمة «بُور» الواردة في سورة «الفرقان» (الآية ١٨) هي من الكلمات اليهودية التي شقت طريقها إلى القرآن الكريم(٨). وهو حين يدّعي ذلك لا يقدم أي دليل عليه، بل هو مجرد دعوى يطلقها إطلاقًا.

وكلام بوهل يوهم أن هذه الكلمة قد أُخذت كما هي، ولم ترد في القرآن إلا بهذا الشكل وفي موضع واحد ليس غير. والحقيقة أنها قد أتت في القرآن بهذه الصيغة مرتين (الفرقان/ ١٨، والفتح/ ١٢)، وأتت بصيغة الفعل المضارع مرتين («يَبُور»/ فاطر/ ١٠، و«تَبُور»/ فاطر/ ٢٩)، كما أتت بصيغة المصدر مرة («بَوَار»/ إبراهيم/ ٢٨). وجميعها من الوحي المكي، أي قبل أن يتصل الرسول عليه السلام باليهود في المدينة، وهذا كله يدل على أن الكلمة عربية. ثم لو تمادى لجوجٌ في لجاجه وادعى مع ذلك أنها ليست عربية، فالرد هو أنه ليس من السهل أن يُشْتَقّ منها كل ذلك في هذه الفترة القصيرة، لأن الكلمة المستعارة من أية لغة تحتاج إلى أزمان طويلة قبل أن تُعامل معاملة الكلمات الأصيلة في اللغة فتؤخذ منها الاشتقاقات المختلفة.

فإذا أضفنا إلى ذلك أن هذه الكلمة موجودة في الشعر الجاهلي باشتقاقاتها

(٨) ٢/٦٣٨/ مادة «يهود (ي)».

المختلفة تبين لنا أن دعوى بوهل لا أساس لها ولا معنى وراءها إلا أنه يتصور أن فيها إساءة إلى القرآن الكريم والرسول عليه الصلاة والسلام. قال درهم بن زيد:

يا قوم، لا تقتلوا سميرا، فإن الـ ... ـقتل فيه البوار والأسف(٩)

وقال الأعشى:

وأهل جوّ أتت عليهم ... فأفسدت عيشهم فباروا(١٠)

وقال طرفة:

همو حَرْمَلٌ أعيا على كل آكل ... مُبِيرٌ، ولو أمسى سَوَامُهمو دَثْرا(١١)

وقال امرؤ القيس:

حتى أُبير مالكا وكاهلا ... القاتلَيْن الملك الحُلاحِلاَ(١٢)

وقال النابغة الذبياني:

وهم منعوا وادي القرى من عدوهم ... بجمعٍ مُبيرٍ للعدوّ المكاثر(١٣)

وقال قيس بن الخطيم:

نشا عُمُرًا بَوْرا شقيا مُلَعَّنا ... ألدُّ كأنّ رأسُه رأس أصْيَدِ(١٤)

وقال زيد بن عمرو بن نفيل:

فتقسوى الله ربكم احفظوها ... متى تحفظوها لا تبوروا(١٥)

(٩) الأغاني/ ٣/٢١.

(١٠) ديوان الأعشى/ ٢٨١.

(١١) ديوان طرفة/ ٦٠.

(١٢) ديوان امرئ القيس/ نشرة حسن السندوبي/ ١٧٦.

(١٣) ديوان النابغة.

(١٤) ديوان قيس بن الخطيم/ تحقيق د. ناصر الدين الأسد/ ١٢٩.

(١٥) سيرة ابن هشام/ ١/٢٢٧.

كما وردت في شعر أمية بن أبي الصلت كلمتا «بور»[١٦]، و«تبور»[١٧].

الكلمة إذن عربية أصيلة، ولا معنى للقول باستعارتها من اليهود لا بلفظها ولا بمعناها.

ومثْلُ ذلك زَعْمُ بوهل، متابعةً لفرنكل، أن الفعل «ختم» ومشتقاته أصله أجنبي، إذ هو عنده مأخوذ من كلمة «خاتم» الآرامية[١٨]. والدليل؟ لا دليل، بل هو مجرد كلام، والسلام!

ولا بأس أن نكرر القول هنا بأن العربية والآرامية والأكادية والعبرية والسريانية والحبشية... هي فروع من أصل واحد قديم هو اللسان السامي. وما دام الأمر كذلك فمن الطبيعي جداً أن توجد مشابهات بين كثير من الألفاظ (القديمة بخاصة، قبل أن تتطور كل من هذه اللغات بعيداً عن أخواتها)، ومن ثم فلا داعي للقول باستعارة إحدى هذه اللغات من أخواتها، إلا إذا قام دليل قاطع على ذلك. أما تكرار القول بدون برهان بأن العربية بالذات قد استعارت كثيراً من الألفاظ (الألفاظ الدينية بوجه خاص) من الآرامية أو الحبشية مثلاً فهو تسيّب لا يقره منهج البحث العلمي. وماذا بالله في الفعل «ختم» مما يجعل هؤلاء المستشرقين يقولون بأخذه من كلمة «خاتم» الآرامية؟ ألم يكن عند العرب أختام يختمون بها رسائلهم عند الفراغ من كتابتها؟ أو يختمون بها دنان الخمر بعد ملئها؟ ترى هل كانت صناعة الأختام تتطلب تقنية متطورة لم تكن متوفرة عند العرب؟ فانظر إلام يؤدي بنا هذا المنطق الاستشراقي العجيب!

ومما ورد فيه من الشعر الجاهلي هذه الكلمة ومشتقاتها الأبيات التالية:

(١٦) ديوان أمية بن أبي الصلت/ تحقيق د. عبد الحفيظ السطلي/ ٣٩٣.

(١٧) السابق/ ٣٩٧.

(١٨) ٢/٢٥٢/ مادة «ختم».

قال امرؤ القيس:

تـرى أثر القَـــرْح في جلـــــــــده   كنقش الخــــواتم في الجِرْجِـــــسِ[19]

وقال لبيد:

أو مـــــذهب جــــدد علــــى ألواحـ   ـهن النـــاطق المبـــروز والمختـــوم[20]

وقال الأعشى في الخمر:

كـــأن شعاع قـــرن الشمس فيهـــا   إذا ما فُتَّ عن فيها الختــــامـــــا[21]

وقال أيضًا:

وصهبـاء طـــــاف يهـــوديّـهـــــا   وأبرزهـــــــا وعليهـــا خُتُـــمْ[22]

وقول دريد بن الصمة:

وإنـــي دعـــوت الله لَمّـا كفــرتنـــي   دعاء فأعطاني على ماقط ختمي[23]

وبـــالله كيف يجيب الإنسانُ المستشرقَ يونبول، الذي يرفض أن تكون كلمة «خراج» مشتقة من «خرج» العربية مؤكدا أنها مأخوذة، عن طريق الفارسية، من الكلمـة الآرامـيـة «halak: هلاك»؟ إنه يقـول إن الرأي الذي كـان سـائدًا بين المستشرقين قبل ذلك هو القول بعروبة مصطلح «الخراج»[24]. وتفسيري للتراجع عن هذا الرأي هو أنهم، في موجة الإساءة إلى العربية، وجدوا أن القول بآرامية الكلمة يحقق لهم هذا الغرض فقالوا به، وإلا فأي عاقل يترك القول باشتقاقها من «خ رج»

(١٩) شرح ديوان امرئ القيس/ نشرة حسن السندوبي/ ١٢٠. والجِرْجس: الصحيفة.

(٢٠) د. جواد علي/ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ ٨/١٣٩.

(٢١) ديوان الأعشى/ ١٩٧.

(٢٢) السابق/ ٣٥.

(٢٣) تاج العروس/ مادة «ختم».

(٢٤) ٢٤٠/٢.

إلى «هلاك» الآرامية؟ ترى ما العلاقة بين الكلمتين؟ وما الذي يمنع أن تكون «خراج» مشتقة من «خرج»؟ إن إدخال الفُرْس في هذه القضية معناه أن العرب لم يكونوا يعرفون هذه اللفظة قبل فتحهم بلاد فارس ومعرفتهم منهم بهذا النوع من الضرائب التي تُفْرَض على الأرض، فهل هذا صحيح؟

لقد تكرر في القرآن الكريم استعمال الفعل «خرج» وعدد من مشتقاته لمنتوجات الأرض والبحر، مثل: ﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ﴾(٢٥)، ﴿وَمَا تَخْرُجُ مِن ثَمَرَاتٍ مِّنْ أَكْمَامِهَا﴾(٢٦)، ﴿وَالْبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نَبَاتُهُ بِإِذْنِ رَبِّهِ﴾(٢٧)، ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾﴾(٢٨)، ﴿فَأَخْرَجَ بِهِ مِنَ الثَّمَرَاتِ رِزْقًا لَّكُمْ﴾(٢٩)، ﴿وَالَّذِي أَخْرَجَ الْمَرْعَىٰ ﴿٤﴾﴾(٣٠)، ﴿فَادْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنبِتُ الْأَرْضُ مِن بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا﴾(٣١)، ﴿وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا﴾(٣٢)... إلخ. ومن هنا سُمي ما يخرج من الأرض ثم ما يؤخذ عليها من ضريبة خَرْجًا وخَرَاجا. جاء في الحديث الشريف: «يأخذ عليه خَرْجًا معلومًا»(٣٣)، «نهانا أن نتقبل الأرض ببعض خَرْجها»(٣٤)، «ولا يُضْرَبَنَّ عليه

(٢٥) المؤمنون: ٢٠.

(٢٦) فصلت: ٤٧.

(٢٧) الأعراف: ٥٨.

(٢٨) الرحمن: ٢٢.

(٢٩) البقرة: ٢٢، وإبراهيم: ٣٢.

(٣٠) الأعلى: ٤.

(٣١) البقرة: ٦١.

(٣٢) فاطر: ١٢.

(٣٣) البخاري/ حرث/ ١٠، ومسلم/ بيوع/ ١٢٠، ١٢١.

(٣٤) النسائي/ أيمان/ ٤٥.

خَرَاج»[٣٥]، «الخراج بالضمان»[٣٦]، «ويضع الخراج وينزل الروحاء»[٣٧]، وغير ذلك.

وقد وردت هاتان الكلمتان في القرآن الكريم بمعنى غير بعيد من ذلك. قال تعالى: ﴿أَمْ تَسْأَلُهُمْ خَرْجًا فَخَرَاجُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٧٢﴾﴾[٣٨]، ﴿فَهَلْ نَجْعَلُ لَكَ خَرْجًا عَلَىٰ أَن تَجْعَلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَهُمْ سَدًّا ﴿٩٤﴾﴾[٣٩]، أي أن الكلمة قد استُخْدِمَت في القرآن والحديث قبل فتح بلاد الفرس والاتصال بهم. من ذلك كله نخلص إلى أن ادعاء يونبول عن آرامية الكلمة هو ادعاء فارغ ينبئ عن جهل بالعربية وتحكم في القول وتعصب على ديننا.

ويدّعي شاخت كاتب مقال «زكاة» أنه لا يوجد لهذه اللفظة اشتقاق عربي مقنع ويردها من ثمّ إلى اللفظة الآرامية «زاكوت»، قائلاً إن الرسول قد عرفها عن اليهود بمعناها الأوسع[٤٠]، أي ليس بمعنى إخراج نصيب الفقراء في المال.

وأول شيء نحب أن نبينه للقارئ، وهو وحده كافٍ في نسف هذا السخف، هو أن هذه الكلمة قد استُعْمِلَت في الوحي المكي مرارًا[٤١]، أي قبل أن يتصبَّح الرسول عليه السلام بوجوه اليهود الدَّنِسة ويختلط بهم في المدينة.

هذا، ولا أدري في الواقع وجه عدم الإقناع في قول علمائنا إنها مشتقة من

---

(٣٥) ابن ماجة/ تجارات/ ٤٠.

(٣٦) الدارمي/ بيوع/ ٧١، والترمذي/ بيوع/ ٥٣، والنسائي/ بيوع/ ١٥، وابن ماجة/ تجارات/ ٤٣.

(٣٧) ابن حنبل/ ٢/ ٢٩٠.

(٣٨) المؤمنون: ٧٢.

(٣٩) الكهف: ٩٤.

(٤٠) ٦٥٤/ ١.

(٤١) الأعراف: ١٥٦، ومريم: ٣١، ٥٥، والأنبياء: ٧٣، والمؤمنون: ٤، والنحل: ٣، والروم: ٣٩، ولقمان: ٤، وفصلت: ٧.

«زكا ـ يزكو» بمعنى الطهارة والزيادة، على أساس أن إخراج الزكاة من المال يطهره من إثم احتجان حق الفقراء والمساكين فيه ويجلب له البركة والنماء. ألم يقرأ شاخت قوله تعالى: ﴿الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّىٰ ﴿١٨﴾﴾[٤٢]، ﴿وَمَا آتَيْتُم مِّن زَكَاةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ اللَّهِ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾[٤٣]، (أي يزيدون مالهم وأجرهم)؟ أوَلَمْ يقرأ قوله جل من قائل: ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[٤٤]؟ فهذه نصوص قرآنية لا سبيل إلى الشك فيها ولا في أنها سابقة على قول علمائنا إن لفظة «زكاة» مأخوذة من «زكا ـ يزكو» بمعنى الطهارة والزيادة. أي أن الاشتقاق الذي قدمه علماؤنا لهذه الكلمة ليس شيئًا متكلفًا، بل هو موجود منذ أن نزل القرآن على الأقل.

ويزعم ڤيرا أن لفظة «صدقة» ليست،كما يقول اللغويون العرب، مشتقة من الفعل «صدق» على أساس أنها دليل على صدق إيمان صاحبها، مؤكدا أنها هي بعينها كلمة «صِداقا» العبرية مكتوبة بأحرف عربية[٤٥].

فأما أنها هي كلمة «صداقا» العبرية مكتوبة بحروف عربية (trans litiration) فغير صحيح، لأن حرف الصاد في اللفظ العبري مكسور بينما هو في العربية مفتوح، والألف التي فيها بعد الدال وتلك التي بعد القاف لا وجود لهما في اللفظ العربي، إلى جانب أن تاء التأنيث في اللفظة العربية لا توجد في الكلمة العبرية.

ثم إن الكاتب، رغم رفضه لأن تكون كلمة «صدقة» مشتقة من الفعل العربي «صدق»، يرى أن كلمة «صِداقا» العبرية تعني في الأصل «honesty: الأمانة

(٤٢) الليل: ١٨.

(٤٣) الروم: ٣٩.

(٤٤) التوبة: ١٠٣.

(٤٥) ٢/ ٤٨٣.

والصـدق»[٤٦]، أي أن ما رفضه بالنسبة للكلمة العربية قد قبله في الكلمة العبرية. وهذا هو الكيل بمكيالين، وهو دليل على التعنت مع العربية والتحيز ضدها، مما يعطينا فكرة عن نوايا القوم ودوافعهم.

ومثل ذلك في الخطإ والتعسف قول المستشرق ڤكّا إن كلمة «صِدِّيق» ربما كانت مأخوذة من الآرامية[٤٧]. والمنطق يقول إنه إذا كانت اللغة العربية تعرف الفعل «صدق» فمن الطبيعي جداً أن يكون لفظ «صدّيق» مشتقا منه وَصْفًا (على المبالغة) للصادق في قوله وإيمانه وما يقتضيه هذا ا لإيمان من صدق في المواقف. ومن الكلمات العربية التي على هذا الوزن: «زِمِّيت، وسِكِّيت، وشِرِّير، وضِلِّيل، وعِنِّين».

ويؤكد متڤوخ أن كلمة «عيد» ليست، كما يقول اللغويون العرب، مشتقة من مادة «ع و د» على أساس أنه احتفال يعود (أي يتكرر) كل سنة، وإنما هي مستعارة ككثير من الألفاظ الدينية من الآرامية. ثم يذكر كلمات ثلاثًا سريانية لها نفس المعنى قريبة من هذا اللفظ[٤٨].

وإننا لنتساءل: لماذا ينبغي أن تخلو اللغة العربية بالذات من هذه الكلمة في الوقت الذي توجد في أخواتها من اللغات السامية؟ إن متڤوخ يعد لفظة «عيد» من الألفاظ الدينية. فلو سلمنا له بهذا، فهل ذلك كاف للقول باستعارة العرب لها من الآرامية؟ ألم يكن عند العرب حياة دينية مثل غيرهم من الأمم؟ ألم يكن للعرب أنبياؤهم هم أيضًا؟ وهذا إن صح أن الكلمة من الكلمات الدينية؟ لكن أليست هناك أعياد غير دينية؟ أليست هناك أعياد قومية وأعياد اقتصادية مثلاً؟ وهل كان العرب لا

(٤٦) نفس الموضع.

(٤٧) ١/٥٤٥.

(٤٨) ١/١٥٦. وقد أشار إلى هذا الرأي د. جواد علي في كتابه «المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام» (٦/ ٣٩٧) ولم يعارضه.

يعرفون الأعياد أيا كان نوعها قبل الإسلام ومن ثم قبل استعارتهم المزعومة لهذا اللفظ من الآرامية؟

وماذا يقول متقوخ في أن هذه الكلمة كانت موجودة في اللغة العربية قبل الإسلام؟ أليس عنده علم بقصيدة «تأبط شرا» المشهورة التي تبتدئ بقوله:

يا عيد، مالك من شوق وإيراق ومرّ طيف على الأهوال طرّاق(٤٩)

وقول الأعشى:

فواكبدي من لاعج الهم والهوى إذا اعتاد قلبي من أميمة عيدها؟(٥٠)

وأصل معنى «العيد» عند العربي الوقت الذي يعود فيه الفرح والحزن، وهو في البيتين ما يعتاد الإنسان من الحزن والشوق. و«العيد» أيضًا في اللغة هو شجر جبليّ، و«عيد» اسم فحل مُنْجِب(٥١). وقد كان للعرب في الجاهلية أعيادهم كما جاء في بعض الأحاديث النبوية الكريمة(٥٢). وعلى أية حال فقد جاءت كلمة «عيد» بالمعنى الذي تدور عليه المقالة التي نحن بصددها في الشعر الجاهلي، كقول امرئ القيس:

فآنست سربًا من بعيد كأنه رواهب عيد في مُلاءٍ مهدَّبِ(٥٣)

وقول أبي قيس بن الأسلت أو أبي قيس بن أبي أنس من شعره الجاهلي:

---

(٤٩) ديوان تأبط شرا/ جمع وتحقيق وشرح علي ذو الفقار شاكر/ ١٢٥.

(٥٠) الألوسي/ روح المعاني/ ٦١/٧.

(٥١) انظر مثلاً «الجمهرة» و«معجم مقاييس اللغه» و«لسان العرب» و«تاج العروس»/ مادة «ع ود».

(٥٢) انظر مثلاً ابن حنبل/ ٦٤/٤، و٣٧٦/٥، ٣٢٤/٦. وانظر كذلك ابن تيمية/ اقتضاء الصراط المستقيم مخالفة أصحاب الجحيم/ تحقيق محمد حامد الفقي/ ١٨٤ ـ ١٨٥، ود. جواد علي/ المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ ١٠٠/٥ وما بعدها، و٣٩٧/٦.

(٥٣) ديوان امرئ القيس/ ٥٤.

وله شمَّس النصارى وقاموا كل عيد لربهم باحتفال[٥٤]

وإن كانوا يستخدمون أيضًا كلمة «يوم»، كـ«يوم السباسب»[٥٥]، و«يوم الفصح»[٥٦]، وأحيانًا يذكرون اسم العيد مباشرة مجردًا من هاتين الكلمتين.

إذن فالكلمة موجودة في العربية من قبل الإسلام، وكذلك كان العرب يستخدمونها، ضمن ما يستخدمونها، في المعنى الذي نستخدمها فيه اليوم. وعلى ذلك لا يحق لأحد أن يزعم أنها في القرآن مأخوذة من لغة أخرى، لأن ذلك القول يناقض المعطيات اللغوية والتاريخية مناقضة حادة، وعلاوة على ذلك فإن قائله لا يقدم عليه أي دليل. وإذا كانت مثل هذه المسائل مما تكفي فيه مجرد الدعاوي فلماذا لا يقال إن الآرامية أو السريانية هي التي استعارتها من لغتنا؟

ويزعم كاتب مادة «فطرة» أن معنى هذه الكلمة (وهو «خِلْقة») مأخوذ من الحبشية، ثم لا يكتفي بذلك بل يزعم أن معاصري الرسول عليه الصلاة والسلام لم يكونوا يفهمون معناها[٥٧].

وهما زعمان من أعجب ما سمعنا، ولنقف عند الثاني منهما أوّلاً. فهل يعقل في شرعة العقلاء أن تتردد مشتقات المادة التي منها هذه الكلمة عشرين مرة في القرآن، الذي كانوا يتلونه صباح مساء، ورغم ذلك لا يفهمونها أو حتى يسألون

(٥٤) ديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت/ جمع وتحقيق د. حسن محمد باجودة/ ٨٦، وسيرة ابن هشام/ ١/٥١١.

(٥٥) كما في بيت النابغة المشهور:

رقاق النعال، طيِّبٌ حُجُزاتُهم يُحَيَّوْنَ بالريحان يوم السَّباسِبِ

(ديوان النابغة الذبياني/ جمع وشرح الشيخ محمد الطاهر بن عاشور/ ٤٩).

(٥٦) ديوان الأعشى/ شرح وتعليق د. محمد محمد حسين/ ١١١.

(٥٧) ٨/١٠٢.

الرسول عن معناها؟ تُرَى أي غموض في قوله تعالى مثلاً: ﴿إِنِّي وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا﴾(٥٨)، أو ﴿فَسَيَقُولُونَ مَن يُعِيدُنَا قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾(٥٩)، أو ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾(٦٠)، أو ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ ۝١ وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ ۝٢﴾؟(٦١) يبدو أن الكاتب لا يستطيع أن يفرق بين نفسه هو وأمثاله من الأعاجم وبين الصحابة ومعاصري النبي من الكفار. ترى لو أن هؤلاء الكفار رأوا في آيات القرآن غموضًا أكانوا يسكتون فلا يتخذون من ذلك سلاحًا يطعنون به الإسلام ورسوله قائلين: إن محمدًا يقول كلامًا غير مفهوم ولا معقول ويريدنا أن نؤمن بأنه من عند الله؟

أما بالنسبة للزعم الأول فكيف عرف الكاتب أن معنى «الخلقة» هو معنى مستعار لكلمة «فطرة» من الحبشية؟ أين الدليل؟ أينبغي أن نكرر في كل مرة أن العربية هي، مثل الحبشية، لغة سامية، وأن إرجاع المشترك من الألفاظ بين اللغات السامية إلى اللغة السامية الأم هو ما يرتضيه المنطق، لا القول بدون دليل باستعارة أحد فروع هذه اللغة من شقيق له؟ إن الفعل «فطر» (بمعنى «خلق») قد ورد مع مشتقاته في القرآن الكريم (فيما عدا لفظة «فطرة») أربع عشرة مرة، فلماذا القول بأن معنى «الخلقة» هو معنى مستعار من الحبشية لتلك اللفظة؟ إنه إذا كان الفعل «فطر» معناه «خلق» فإن معنى «فطرة» ينبغي أن يكون «خِلْقة». أليس هذا هو منطق اللغة واشتقاقاتها؟ فما المشكلة في ذلك؟

وأصل المعنى في هذه المادة هو الشق والظهور. يقال مثلاً: «فَطَر نابُ البعير»

(٥٨) الأنعام: ٧٩.

(٥٩) الإسراء: ٥١.

(٦٠) يس: ٢٢.

(٦١) الانفطار: ١- ٢.

أي طلع، و«فطر فلان البئر» أي شقّها، و«تفطّرت الأرض بالنبات» أي تشققت وظهر النبات من شقوقها... وهكذا. وهل الخلق سوى شقّ العدم عن الكائن المراد إيجاده وظهوره إلى حيِّز الوجود من ثَمَّ؟

ويرجع فنسنك كلمة «قربان» إلى كلمة «قربان» العبرية، قائلاً إن الآرامية قد تكون هي الجسر الذي عبرت عليه اللفظة العبرية إلى العربية(٦٢).

ومرة أخرى نقول إن العربية، مثل العبرية، لغة سامية، فاشتراك كثير من الألفاظ القديمة بينهما أمر جد طبيعي، ولا داعي للقول بالاستعارة ما لم يقم برهان ساطع قاطع على هذا.

والـ «قربان» مأخوذ من مادة «ق ر ب»، لأنه العمل الذي «يتقرب» به العبد إلى ربه. كما أن صيغة «فُعْلان» منتشرة في اللغة العربية، فهي صيغة أصيلة فيها لا واردة عليها من خارجها. ومن الكلمات التي على هذه الصيغة «قُرْآن، وخُسْران، وفُرْقان، وحُسْبان، وبُهْتان، وبُطْلان، وربَّان (الشباب: أوّله)، وعُدْوان، وسُرْعان، وعُثْمان (فرخ الثعبان والحُبَارَى)، وبُطْنان (الشيء: وسطه)، ورُجْحان، ونُكْران، وشُكْران، وكُفْران، وبُحْران (الحُمَّى: هلوستها)».

من هنا ننتهي إلى أن هذه اللفظة هي لفظة عربية أصيلة لفظًا ومعنى وصيغة. والقول بغير ذلك هو مجازفة متعسفة يتمعَّر لها وجه العلم.

ويفترض بوهل أن اسم «المدينة» مستعار من الكلمة الآرامية «مدينتا»، ويعزو ذلك إلى وجود عنصر يهودي قوي في يثرب، رافضًا قبول ما يقوله المسلمون من أنها اختصار لاسم «مدينة الرسول»(٦٣).

ومن الواضح أن هناك تعسفًا شديدًا في رد هذه الكلمة العربية إلى أصل

(٦٢) ٢/٢٨٦.

(٦٣) ١/٢٩١/ مادة «المدينة». وقد ردد للأسف بعض الباحثين العرب هذا الافتراض، =

آرامي، وأن هناك تعسفًا أشد في إدخال اليهود في هذه المسألة. إن هذا الاسم مشتق من أصل عربي هو «م د ن» أو «دين». وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم اسم جنس (مفردا ومجموعًا) في عدة نصوص مكية[٦٤] (أي قبل الهجرة إلى يثرب والاحتكاك باليهود، الذين يحرص المستشرقون على رد كل شيء تقريبًا إليهم هم والنصارى)، وهذا دليل على أنها كانت معروفة عند العرب. فلماذا محاولة الإيهام بأنها تعود إلى أصل آرامي وأنها دخلت اللغة العربية عن طريق اليهود؟

وقد ذكر بوهل أن «المدينة» قد وردت عند بطليموس وستيفن بنيزنطيوس باسم «يثرب»، وكذلك الحال في النقوش المعينية[٦٥]، كما وردت بهذا الاسم في الكتابات الآشورية المتأخرة[٦٦]. وفي نفس الوقت فإنه لم يقدم لنا أي شعر جاهلي أو أي نص عبري ذُكر فيه اسمُ تلك البلدة على أنها «المدينة»، فلماذا الإصرار رغم كل هذا على أنها لم تُسَمَّ بـ «المدينة» اختصارًا لـ «مدينة رسول الله»، وإنما لأن اليهود قد نقلوا

= كالدكتور شوقي ضيف (العصر الجاهلي/ ٥٣)، ود. جواد علي (المفصل في تاريخ العرب/ ٤/ ١٨١)، وسامي مكي العاني (ديوان كعب بن مالك الأنصاري/ دراسة وتحقيق سامي مكي العاني)، ووليد قصاب (ديوان عبد الله بن رواحة ـ دراسة في سيرته وشعره/ ١٣ ـ ١٤)، وأحمد إبراهيم الشريف (مكة والمدينة في عصر الرسول/ ٢٩٠ ـ ٢٩١). هذا، وقد وجدت الدكتور راشد البراوي يترجم هنا كلمة «الآرامية» مرتين بـ «النبطية». انظر «الموسوعة العربية الميسرة»/ ٢/٩٩٥/٢.

(٦٤) وردت عشر مرات مفردةً، وثلاثا مجموعةً على «مدائن». انظر «المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم». وقد تنبه إلى ذلك بوهل، ومع ذلك مضى في افتراضه المتعسف، مما يدل على أنه قد دخل بحث هذه المسألة بقرار مسبق.

(٦٥) ١/٢٩١.

(٦٦) انظر د. خليل إبراهيم السامرائي وثائر حامد محمد/ المظاهر الحضرية للمدينة المنورة في عصر النبوة/ ١٧.

هذه التسمية من كلمة «مدينتا» الآرامية؟ لقد كان اليهود يسكنون مدنا أخرى غير «يثرب»، فلماذا لم يستعيروا لغيرها هذه التسمية، مثل نجران، التي كان لهم فيها سلطان قوي أيام ذي نُوَاس؟ ولا شك أن نجران، وهي مدينة يمنية، كانت أكثر تحضراً من يثرب في الجاهلية، ومن ثم كانت تستحق أكثر من يثرب أن يطلق عليها اسم «المدينة». بل إنهم قد سكنوا مدنًا أخرى كثيرة في الشام، ولم نسمع أنهم سمَّوْا أيا منها بـ «المدينة». أتدفع كراهية الرسول المستشرقين إلى ركوب هذا المركب الوعر؟ وإذا كانت هذه التسمية مأخوذة من الآرامية (وكأن اللغة العربية تخلو منها)، فلماذا سُمِّيَتْ يثرب بـ «المدينة» دون غيرها من مدن الجزيرة؟ ما الذي كانت تتميز به في الجاهلية عن سائر مدن العرب؟ لقد كان الأمر يكون مفهومًا لو سُمِّيَتْ بذلك مكة مثلاً حيث يقوم البيت الحرام، وحيث يحج الناس منذ قديم الزمان إلى كعبتها، وحيث لقريش تلك المكانة التي كانت لها بين العرب. أما المدينة فلم يكن لها شيء من ذلك يجعلها تنفرد بإطلاق هذه التسمية عليها (بعد تحويلها من اسم جنس إلى اسم علم). أما بعد الهجرة فالأمر قد اختلف، إذ هاجر الرسول عليه السلام إليها وأصبحت بذلك عاصمة الإسلام ومنطلق الدعوة. فمن المفهوم إذن أن يسميها المسلمون، إعزازًا لنبيهم وتعبيراً عن حبهم له وتبركًا به وبالدين الذي جاء به، بـ «مدينة الرسول»، ثم اختصاراً بـ «المدينة».

ولقد ورد عند الكتاب العرب تفسير لتسميتها «يثرب» في الجاهلية[٦٧]، ولم يرد عن أي منهم تفسير لتسميتها «المدينة» قبل الإسلام، وهذا يعضّد أنها لم تكن تسمى بهذا الاسم في الجاهلية.

(٦٧) كالمسعودي (مروج الذهب/ ١٤٨/٢)، وياقوت (معجم البلدان/ مادة «يثرب»)، والعباسي (عمدة الأخبار في مدينة المختار/ ٤١)، والسمهودي (وفاء الوفا/ ٧/١) وغيرهم.

ولقد رجعت إلى كل ما أتيح لي من دواوين الشعراء الجاهليين والمخضرمين وكذلك إلى الكتب التي تتحدث عن الشعر الجاهلي وتمتلئ بشواهده لعلّي أعثر بينها على نص جاهلي يسميها «المدينة»، فلم أجد إلا بيتًا يتيمًا مختلَفًا في نسبته بين أحيحة بن الجلاح (وهو شاعر يثربي جاهلي) وأبي محجن الثقفي[٦٨]. وهذا البيت قد ورد منفردًا، أي لم يجئ في مقطوعة أو قصيدة، إنما هو بيت منقطع. وقد علّق د. محمد حسن باجودة محقق ديوان أحيحة بأن هذا البيت إسلامي، وعلل ذلك بأن اسم «المدينة» لم يطلق على يثرب إلا بعد الإسلام. وأنا أوافقه على حكمه، وإن كان تعليلي يقوم على أنه من غير المنطقي أن ينفرد أحيحة دون سائر الشعراء الجاهليين والمخضرمين بتسمية يثرب بـ «المدينة»، وفي بيت واحد لا غير. ويا ليت ذلك البيت قد أتى ضمن أبيات أخرى، فقد ورد كما قلت منقطعًا. وهذا هو نصه:

قد كنت أغنى الناس شخصا واحدا ... سكن المدينة عن زراعة قُوم[٦٩]

---

(٦٨) اتبع بوهل طريقة مضللة حين ذكر أنه بينما استعمل قيس بن الخطيم (وقيسٌ شاعر جاهلي) من بين شعراء المدينة اسم «يثرب» دائمًا فإن حسان بن ثابت وكعب بن مالك قد استخدما التسميتين معًا. وهذا معناه أنهما فعلا ذلك في شعرهما: الجاهلي منه والإسلامي على السواء. ذلك أنه لم يحدد أي شعر استخدما فيه التسميتين. بل إن ذِكْر ابن الخطيم الجاهلي معهما يوحي بأن بوهل يقصد شعرهما الجاهلي. والصحيح أنهما لم يستعملا اسم «المدينة» في شعرهما الجاهلي قط. أما كعب بن مالك فقد ورد اسم «المدينة» عنده في بيت إسلامي واحد، وهو:

عبدٌ وحُرٌّ كريم مَوْثِقٌ قَنَصا ... شطر المدينة مأسور ومقتول

(ديوان كعب بن مالك الأنصاري/ ٢٥٨).

(٦٩) ديوان أحيحة بن الجلاح الأوسي/ دراسة وجمع وتحقيق د. حسن محمد باجودة/ ١٨. وربما كانت الألف واللام في «المدينة» هنا للعهد وتكون الكلمة اسم جنس لا عَلَمًا، والمقصود بها المدينة بوجه عام لا يثرب بالذات.

أما الشواهد على تسميتها بـ «يثرب» فمتعددة، وقد وجدتها عند شعراء يثرب وغيرهم. وهذه هي الدواوين التي رجعت إليها: ديوان قيس بن الخطيم، وديوان أبي قيس صيفي بن الأسلت الأوسي، وديوان أحيحة بن الجلاح، وديوان عبد الله بن رواحة، وديوان كعب بن مالك، وديوان حسان بن ثابت، وديوان السموأل، وديوان امرئ القيس، وديوان عروة بن الورد، وديوان تأبط شرا، وديوان النابغة الذبياني، وديوان الحطيئة، وديوان زهير، وديوان عمرو بن كلثوم التغلبي، وديوان الحادرة، وديوان طرفة، وديوان الخِرْنق بنت بدر، وديوان أمية بن أبي الصلت، وديوان الأعشى، وذلك إلى جانب المفضليات، والأصمعيات، و«المعمَّرون والوصايا» لأبي حاتم السجستاني، و«الشعر والشعراء» لابن قتيبة، وكتب السير والمغازي، و«شعراء اليهود في الجاهلية وصدر الإسلام» للدكتور أحمد محمد النجار، و«المفصّل في تاريخ العرب قبل الإسلام» للدكتور جواد علي (الجزء التاسع، وهو الجزء الخاص بالأدب والشعر الجاهلي)، و«يثرب قبل الإسلام»، و«المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى» للدكتور محمد السيد الوكيل، و«المدينة في العصر الجاهلي ـ الحياة الأدبية» للدكتور محمد العيد الخطراوي، و«مكة والمدينة في الجاهلية وعصر الرسول» لأحمد إبراهيم الشريف، وغير ذلك من الكتب المشابهة. وقد تصفحت هذه الكتب وتلك الدواوين أو استعنت بفهارس ما له منها فهارس بأسماء المواضع، فلم أجد شاهداً جاهليًا يسمِّي «يثرب» بـ «المدينة»، اللهم إلا البيت المختلف في نسبته بين أحيحة بن الجلاح وبعض الشعراء المسلمين كما ذكرت سالفًا.

بل إن شاعراً يهوديًا مثل كعب بن الأشرف، وقد كان أحرى به أن يسميها بـ «المدينة» جرياً على عرف قومه، قد وجدته فيما وصلنا من شعره يسميها هو أيضًا «يثرب»، ولم أجده قد سماها قط بـ «المدينة». قال، وكان ذلك بعد غزوة بدر وهزيمة

المشركين فيها:

نُبِّئْتُ أن الحـــارث بن هشـــامهـــــم في الناس يبني الصـالحـات ويجمـــعُ

ليـــزور يثرب بالجمـــــوع، وإنمـــــا يحمى على الحسب الكريم الأروعُ(٧٠)

وهذه عدة من النصوص الشعرية الجاهلية التي وردت فيها تسمية «يثرب»:

تنَّورتُهـــا من أذرعـــات، وأهلهـــا بيثرب أدنى دارهـــا نظر عـــالِ(٧١)

* * *

علون بـــأنطـــاكيـــةٍ فوق عِقْمَـــةٍ كجِرْمة نخلٍ أو كجنّـــة يثـــربِ(٧٢)

* * *

فـــــي كـــــــــل واد بين يثـ ـرب والقصـــــور إلى اليمـــامـــة(٧٣)

* * *

مَنَعَـــتْ قياسُ المـــاسخيـــة رأســـه بسهـــام يثـــرب أو سهـــام بـــلاد(٧٤)

* * *

ألا أيهـــذا الســـائلي: أيـــن يمَّمَـــت؟ فإن لهـــا في أهـل يثرب موعـــدا(٧٥)

* * *

(٧٠) سيرة ابن هشام/ ٢/٥٢.

(٧١) ديوان امرئ القيس/ ١٦١.

(٧٢) السابق/ ٤٩.

(٧٣) ابن قتيبة/ الشعر والشعراء/ تحقيق أحمد محمد شاكر/ ١/١٠٦.

(٧٤) ديوان الأعشى/ شرح وتعليق د. محمد محمد حسين/ ١٣١.

(٧٥) السابق/ ١٣٥، وإن كان هناك من يشك في القصيدة التي ورد فيها هذا البيت والتي هي في مدح النبي عليه السلام.

وأجـدرنـــا أن ينفخ الكيرَ خـــالُــــه	يصوغ القروط والشنوف بيثربـــا(٧٦)

* * *

رمت عن قِسِيٍّ المـــاسخيِّ رجـالنـــا	بأجْوَد ما يُبْتَاع من نَبْل يثـربِ(٧٧)

* * *

إذا مـــا أردت الـعزَّ فـي آل يثـــربٍ	فناد بصوتٍ: «يا أحيحةُ» تُمْنَعِ(٧٨)

* * *

ولـــولا كراهـــة سفـــك الدمـــــــاء	لعـــاد ليثـــرب أديـــانهـــــــا(٧٩)

* * *

ويثـــــــرب تعلـــــــم أن النبيـــ	ــت راسٍ بيثـــرب ميزانهـــــــا(٨٠)

* * *

وبـــالشــــوط من يثـــربٍ أعْبُـــــدٌ	ستهلك في الخمـــر أثمانهـــــا(٨١)

* * *

أيْهـــــاتَ مَـــنْ أهـــلُه بيثرب قـــد	أمسى ومَنْ دُونَ أهلِـــه سَـــرِفُ(٨٢)

* * *

(٧٦) ديوان عمرو بن كلثوم التغلبي/ تحقيق أيمن ميدان/ ٧٦، ١٣٢.

(٧٧) لطفيل الغنوي، وهو موجود في «المدينة في العصر الجاهلي ـ الحياة الأدبية» للدكتور محمد العيد الخطراوي/ ٢٩٣.

(٧٨) السابق/ ٣٠٢.

(٧٩) ديوان قيس بن الخطيم/ تحقيق د. ناصر الدين الأسد/ ٧٢.

(٨٠) السابق/ نفس الصفحة.

(٨١) السابق/ ٧٣.

(٨٢) السابق/ ١١٣.

لها حائطان المـــــوت أسفـــل منهمـــا وجمعٌ متى يُصَرِّخْ بيثربَ يُصْعِدِ(83)

* * *

ألا أبلـــغ بني ظَفَـــرٍ رســـــــــــولا فلـم نَذْلِلْ بيثرب غيـــر شَهْـــرِ(84)

* * *

متى مـــا تـــأت يثـــرب أو تزُرْهـــا تجدْنـــا نحن أكرمهـــا وجـــــودا(85)

* * *

ويثـــــرب تعلـــم أنـــا بهـــــــا أسـْــودٌ تنفّـــض ألبـــادهـــــا(86)

* * *

سأهدي لها في كل عـام قصيـــــدة وأقعد مِكفيًا بيثرب مكرمـــــا(87)

* * *

ويثـــرب تعلـــم أنَّـــا بهـــــــا إذا ألبـــس الحـــقّ ميزانُهـــــا(88)

* * *

والمانح المائة الهجـــان بأســـرهـــا تُزْجى مطافلهـا كجنـــة يثـــرب(89)

من كل ما تقدم نرى أن بوهل قد أخطأ خطأً فاحشًا بردِّه التعليل الذي قدمه الكتّاب العرب لتسمية «يثرب» بـ «المدينة» بعد الإسلام ومحاولته إرجاع هذا الاسم.

---

(٨٣) السابق/ ١٢٦.

(٨٤) السابق/ ١٨٤.

(٨٥) ديوان عبد الله بن رواحة ودراسة في سيرته وشعره/ ١١٨.

(٨٦) انظر ديوان حسان بن ثابت/ تحقيق د. سيد حنفي حسنين/ ١٠٣.

(٨٧) السابق/ ١٤٨.

(٨٨) السابق/ ٣١٣. وقد ورد هذا الاسم في نفس القصيدة ٤ مرات أخرى.

(٨٩) الأغاني/ ١٥/٨٢، والبيت لبشر بن أبي خازم الأسدي.

إلى أصل آرامي دخل اللغة العربية عبر اليهود وقد كان ينبغي عليه النأي (عن التعصب ضد الإسلام ونبيه) في البحث العلمي، إذ من شأن العلماء التنزه عن هذه العصبيات المقيتة.

ويرفض بوهل أيضًا ما يقوله بحقٍّ اللغويون العرب من أن كلمة «المنافق» مشتقة من «نافقاء (اليربوع)»، زاعمًا أنها مأخوذة من الحبشية من لفظة «manafek»، التي تعني (كما يقول) «زنديق» من «nafaka» (ينشق) و«nafaka» (ينقسم أو يتردد)(٩٠).

والحق أنني لا أدري لماذا يرفض ذلك المستشرق الاشتقاقَ الذي يقدمه اللغويون العرب لهذه الكلمة رغم أنه هو التفسير الذي لا يوجد تفسير يضارعه في دقته وقوته. ذلك أن «نافقاء (اليربوع)» هي جُحْر من الجحور في باطن الأرض يخفيه ذلك الحيوان ويظهر غيره، و«نافَق (اليربوعُ)» معناها «دخل في نافقائه»، وهل النفاق الإنساني إلا هذا؟ فلماذا الاعتراض إذن على هذا التفسير؟

أما الزعم بأن هذه الكلمة مأخوذة من لفظة إثيوبية بمعنى «انشق» أو «انقسم» فغير مقبول، إذ إن المنافق لا ينشق على الجماعة، فليس عنده من الصراحة والشجاعة وقوة الشخصية ما يجعله يتخذ هذا الموقف المعارض الواضح. إنما هو من أشد الناس تظاهرًا بأنه مع الجماعة بل من أشدهم تمسكًا بمبادئها، ولكنه يعمل ضد ذلك في الخفاء.

وأخيرًا، فإذا كان لا بد من القول بأن إحدى اللغتين قد أخذته من الأخرى فلماذا يصر المستشرقون دائمًا على القول بأن العربية هي المستعيرة؟ ألأنها لغة

(٩٠) ٤١٠/ ٢/ مادة «المنافقون». وقد أسقط د. راشد البراوي المعنى الأصلي لكلمة «nafaka» الحبشية (حسبما ذكر بوهل) فقال إن معناها «غير مستقر الرأي» (الذي ترجمته أنا بـ «يتردد») ولم يذكر «ينقسم». انظر ترجمته/ ٢/ ١١٤٠/١.

محمد صلى الله عليه وسلم ولغة القرآن الكريم؟ أهذه هي الموضوعية العلمية؟

ويقول المستشرق هوروفيتز كاتب مادة «نبي» إن هذه اللفظة مستعارة من العبرية أو الآرامية من كلمة مشابهة(٩١).

وكان ينبغي أن يتوقف قليلاً عند دلالة وجود هذه الكلمة في هذه اللغات الثلاث (وهي موجودة أيضًا في الكنعانية، وربما كانت موجودة في باقي اللغات السامية أو في عدد منها كذلك)، إذ إن ذلك معناه أنها كلمة مشتركة بينها بصفتها فروعًا قد تفرقت عن أصل واحد هو اللغة السامية الأم التي يفترض وجودها الباحثون في لغات المنطقة ومنهم هؤلاء المستشرقون. وإن الواحد ليتساءل: لماذا لم يقل ذلك المستشرق إن العبرية قد أخذتها من الآرامية أو العكس؟ لماذا تُتَّهم العربية وحدها دائمًا بأنها هي المستعيرة؟

ثم ما الذي يجعلها تستعير هذه الكلمة ومادّتُها موجودة فيها ومنتشرة الاستعمال، إذ عندنا «أنبأ» و«نبّأ» و«تنبّأ» و«استنبأ» و«نبأ» و«نُبوءة» و«نَبْأة»، و«النبيء» (فَعِيل من «نبأ»، وقد خُفِّفَت الهمزة وأُدْغِمَت الياء في الياء فصارت «نبيًا» وشاع استعمالها هكذا)؟(٩٢) وقد سُمِّي النبي بذلك لأنه يُنْبَأ بنبأ السماء ثم يُنْبئه للناس بعد ذلك. وقد عرف العرب النبوة والأنبياء، إذ ظهر فيهم إسماعيل وهود وصالح وشعيب عليهم السلام مثلما هو مذكور في القرآن الكريم. وهذا غير من ذكره العهد القديم منهم، مثل ملكي صادق وبثرون وبلعام وأيوب(٩٣)، إلى جانب ما أشار

(٩١) ١/٤٢٧.

(٩٢) في «تفسير التحرير والتنوير» يستعمل الشيخ محمد الطاهر بن عاشور هذه الكلمة بالهمزة دائمًا على أصلها.

(٩٣) انظر العقاد/ إبراهيم أبو الأنبياء/ ١٥٩ ـ ١٦٠، ومطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية/ ٧٣.

إليه الإخباريون العرب[٩٤] إذا كان لنا أن نأخذ بكلامهم. فكما ترى ليس ثمة من داع إلى القول باستعارة هذا اللفظ من أية لغة أخرى[٩٥]. وإن ادعاء ذلك ليس من العلم في شيء.

أما كلمة «الجن» فإن كاتب مادتها يرفض أن تكون عربية، إذ إن القول بهذا الاشتقاق صعب جداً كما يقول، ولا يستبعد أن تكون مستعارة من اللاتينية[٩٦]. وهو، سواء في رفضه لعروبيتها أو عدم استبعاده أن تكون لاتينية الأصل، لا يطرح أمامنا أي برهان، بل إن قوله إنه لا يستبعد أن تكون لاتينيةً هو برهان في حد ذاته على أن المسألة ليست إلا تخميناً، والتخمين لا يكفي في البحث العلمي. إن مثل هذه الدعوى ليست بالأمر الهيّن، ولا بد لمن يقدم عليها أن يكون متدرّعًا بما يثبت دعواه، أما مستشرقنا فليس معه من ذلك قليل أو كثير. وهل تَشَابُهُ كلمة «جنّ» إلى حد ما مع «genius» اللاتينية يكفي القول بعدم استبعاد أن تكون الأولى مأخوذة من الثانية؟ إنه لا بد من تتبع رحلة هذه الكلمة وتطوراتها من خلال النصوص المختلفة قبل القول بشيء من ذلك، مع إثبات وجود صلة بين اللاتينية والعربية تؤهل لطرح مثل هذه الدعوى. ثم لماذا لا تكون اللاتينية هي التي استعارت هذه اللفظة من لغتنا أو من اللغة السامية التي يفترض هؤلاء المستشرقون أنها هي أم لغتنا وعددٍ من لغات المنطقة؟ سيقال: وأين الدليل؟ وهو نفس السؤال الذي نطرحه عليهم[٩٧].

(٩٤) انظر د. جواد علي/ المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام/ ٦/ ٨٣ ـ ٨٤.

(٩٥) هناك من علماء العبريات من يقول باستعارة العبريين لهذه الكلمة من اللغة الكنعانية (انظر العقاد/ مطلع النور أو طوالع البعثة المحمدية/ ٧٣)، بَيْدَ أننا لا نستطيع أن نفتي في هذه المسألة لعدم معرفتنا بأي من ذَيْنِكَ اللسانين. أما العقاد فيرى أنهم قد أخذوها عن العرب (إبراهيم أبو الأنبياء/ ١٥٩، ومطلع النور/ ٧٣).

(٩٦) ٩٠/ ٢.

(٩٧) دخلت كلمة «جنّيّ» إلى اللغة الإنجليزية متخذة الشكل التالي: «jinn» أو «jinni».=

إن مادة «ج ن ن» هي مادة عربية أصيلة، واشتقاقاتها معروفة ومستعملة بكثرة، ومنها «جَنَّ» و«أجنّ» و«استجنّ» و«جانٌّ» و«جَنَان» و«مجنون» و«جَنِين» و«مِجَنّ» و«جِنّ» و«جِنّيّ» و«جَنَّة» و«جُنّة» وغير ذلك، وكلها تفيد التغطية والتخفي، فلماذا القول، مع كل هذا، بأنها ليست عربية؟ ألا إن ذلك لشيء غريب!

وبعد، فقد كانت هذه طائفة من الألفاظ التي يقول المستشرقون إنها ليست عربية بل مجتلبة من اللغات الأخرى. وهم، كما رأينا، يحرصون حرصا شديدا على إسناد دور في ذلك لليهود. وقد رأينا مدى الاعتساف والتهافت في دعاواهم، ويكفي أن أحداً منهم لم يحاول مجرد محاولة أن يقدم أي دليل على دعواه ولا أن يبين لنا كيف انتقلت الكلمات المدَّعَى استعارتها من اللغة الأجنبية المزعومة إلى لساننا العربي. وقبل ذلك قد تجاهلوا أن العربية، مثل الآرامية والعبرية والحبشية والسريانية...، هي لغة سامية، فمن الطبيعي أن يكون بينها وبين هذه اللغات كثير من الألفاظ المشتركة خصوصًا القديم منها. لا، بل إن العربية تكاد أن تكون هي اللغة السامية الوحيدة التي لم ينقطع استعمالها حتى الآن، ولذلك فليس هناك عربية قديمة وعربية حديثة. إنما هي عربية واحدة تطورت على مدى الأحقاب المتطاولة، بيد أن قواعدها واشتقاقاتها ما زالت كما هي. وهذه المزايا من شأنها أن تجعل العربية أصلَ من غيرها من أخواتها الساميات، فكيف يقال مع ذلك دائمًا إنها هي المستعيرة منها؟

* * *

= انظر معجم «Webester's Seventh New Collegiate Dictionary, 1976»، حيث يجد القارئ نصًا على أصلها العربي. وقد ترجمها الفرنسيون بكلمة شبيهة بها هي «Genie». انظر «قاموس أوكسفورد الإنجليزي: The Oxford English Dictionary».